الأثر النفسي للقرآن الكريم
دراسة وتحليل

دكتور / خليفه حسين العسال
الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية
كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية
جامعة قطر

التعريف بالبحث :

إن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة ، ولم تصل العقول حتى الآن إلى حصر هذه الوجوه ، وكلما زاد التدبر في آيات القرآن وتقدم الإنسان بعلومه كان ذلك مدعاة لأن تظهر وجوه أخرى لم تكن معروفة من قبل وظهور الإعجاز العلمي خير دليل على هذا فلم يعرف إلا في عصور متأخرة وتأثير القرآن وجاذبيته وجلاله وهيبته يصل بنا إلى وجه من وجوه الإعجاز فيه وهذا ما سيكشف عنه البحث .

والله من وراء القصد

المقدمة

الحمد لله رب العالمين (خلق الإنسان علمه البيان)[1] ، وفضله على سائر خلقه بالعقل واللسان وأضاء قلبه وعقله لفهم إعجاز القرآن والصلاة والسلام على عبده ورسوله الممنوح من ربه الحكمة وفصل الخطاب وسلم تسليما كثيراً .

وبعد .

فقضية الإعجاز القرآني من القضايا العلمية والدينية الهامة التي شغلت الفكر الإسلامي على مر العصور ولازالت تشغله حتى عصرنا الحاضر ، ولقد تدارسها الكثير من العلماء على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأفردوا لها عشرات البحوث والرسائل والكتب والمصنفات وتعمقوا في دراسة القرآن الكريم دراسة موضوعية شاملة لعلهم يصلون إلى تحديد لغة الإعجاز ووجوهه . ذلك لأن الله تعالى أوجد بالقرآن أعظم انقلاب في البشر بتأثيره في أنفس العرب حيث جعلهم بعد أميتهم أساتذة الأمم وسادة العجم وسيظل القرآن هو المعجزة الخالدة التي لا يزيدها التقدم العلمي إلا رسوخاً في الإعجاز . ومن إعجاز القرآن أن يظل مطروحاً على الأجيال تتوارد عليه جيلاً بعد جيل . ثم يظل أبداً رحب المدى سخي المورد كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح عالياً يفوق طاقة الباحثين والدارسين . ومع إدراكي الكامل أن الإعجاز القرآني يفوق كل محاولة لتحديده فإنني أضع إلى جانب الدراسات السابقة ما توصلت إليه من دراسة وتحليل في إطار الإعجاز النفسي للقرآن الكريم كما سيتضح فيما يأتي .

والله ولي التوفيق .

---

(١) الرحمن / ٣ و ٤ .

مفهوم الإعجاز النفسي للقرآن :

لقد سبق العلماء المتخصصون في بيان مفهوم الإعجاز وتحديد المراد منه فذكروا أن الإعجاز في اللغة نسبة العجز إلى الغير وإثباته له ، والعجز هو القصور عن فعل الشيء ، والإعجاز مصدر (أعجز) يقال عجز فلان عن الأمر إذا حاوله فلم يستطعه ولم تتسع له مقدرته وجهده ، ويقال أعجز الرجل أخاه إذا أثبت عجزه عن شيء ، وأعجز القرآن الناس أي أثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله . وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجزة ، والقرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتى ولا وجهة ، وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية يشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع[٢] ومنه معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحده معجزة وهي اسم الفاعل منه لحقته تاء التأنيث .

والمعجزة شرعاً : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة[٣] . ويقول ابن خلدون (إن المعجزات هي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة وليست في مقدور العباد وإنما تقع في غير محل قدرتهم)[٤] فالمعجزة إذن خرق لنواميس الكون أو لقوانين البشر ، يعطيها الله سبحانه وتعالى لرسله ليدل على منهجه ويثبتهم به ويؤكد للناس أنهم رسله يؤيدهم وينصرهم ، وحينئذ تقف قوانين البشر عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئاً .

والقرآن الكريم معجزة عقلية لمحمد ﷺ كاف في الدلالة قائم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء . وهذا بدوره يكشف لنا عن أمور منها :

الأول : أن قليل القرآن وكثيره في شأن (الإعجاز) سواء .

الثاني : أن الإعجاز كائن في وصف القرآن وبيانه ونظمه ، ومباينة

---

(٢) الرافعي : إعجاز القرآن : ص ٢٠٣ والرازي : مختار الصحاح ص ٤١٤ ، ابن منظور : لسان العرب ص ٦٩١ - إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ج ٢ ص ٥٩١ . والزمخشري : أساس البلاغة ص ٢٩٤ تحقيق عبد الرحيم محمود .

(٣) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن جـ ٢ ص ١١٦ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة : ص ٩٠ .

خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب ، ثم سائر لغات البشر ثم بيان الثقلين جميعاً متظاهرين .

الثالث : أن الذين تحداهم بهذا القرآن قد أوتوا القدرة على الفصل بين ما هو من كلام البشر وما هو ليس من كلامهم .

الرابع : أن هذا التحدي لم يقصد به الإتيان بمثله مطابقاً لمعانيه بل أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه من كل معنى أو غرض مما يعتلج في نفوس البشر .

الخامس : أن هذا التحدي للثقلين جميعاً تحد مستمر قائم إلى يوم الدين[٥] .

وعجز العرب عن المعارضة ما هو إلا عجز للعربية في عنفوان شبابها وريعان قوتها فعجزهم وهم الفصحاء البلغاء فيه دلالة واضحة على عجز من يأتي بعدهم[٦] .

وتخصيص النفس بالإعجاز راجع إلى أن النفس هي الإنسان بالحقيقة ومحل المعقولات والتفكير والتمييز والروية[٧] . ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فتكون لوامة[٨] أو أمارة[٩] أو مطمئنة[١٠] وللقرآن الكريم تأثير في النفوس وجاذبية يفتح بها مغاليق القلوب وهيبة يحيى بها موات الضمائر ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[١١] كما أنه يستثير العواطف والوجدانات ويحرك المشاعر والأحاسيس والانفعالات بجمال أسلوبه وعذوبة لفظه وروعة بيانه ودقة أحكامه فتستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور كما أنه يوجه الدوافع توجيها سليماً ويدعو

---

(٥) محمود شاكر : مقدمة الظاهرة القرآنية ص ٣٠ ، ٣١ .

(٦) الباقلاني : إعجاز القرآن ص ٣٨ .

(٧) الغزالي : الرسالة اللدنية ص ٧ المطبعة المحمودية التجارية .

(٨) القيامة / ٢ .

(٩) يوسف / ٥٣ .

(١٠) الفجر / ٢٧ .

(١١) الزمر / ٢٣ .

الإنسان بعد النظر في الكون وما فيه إلى التفكير في نفسه - في أسرار تكوينه البيولوجي والنفسي قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾[١٢] وقال تعالى : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)[١٣] وقال سبحانه (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)[١٤] .

ولا شك أن الدارس للنفس الإنسانية في ضوء القرآن يجد فيه معيناً لا ينضب ويتبين تأثيره البالغ الشأن في نفس الإنسان فهو يرقق القلب وتسمو به النفس ويخفف من وهج الحياة وأعبائها فيكون شفاء لما في صدورنا ونورا نمشي به في حياتنا .

ولو أن الناس عكفوا عليه لوجدوا فيه أعظم مصدر للدراسات النفسية والاجتماعية التي تنعكس على الفرد والمجتمع برداً وسلاماً وأمناً واستقراراً .

من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

ما من شك في أن وجوه الإعجاز في القرآن كثيرة ومتنوعة ولكن العقول لم تصل حتى الآن إلى حصر كل هذه الوجوه فكلما زاد التدبر في آيات القرآن وتقدم الإنسان بعلومه كان ذلك مدعاة لأن تظهر وجوه للإعجاز لم تكن معروفة من قبل .

وظهور الإعجاز العلمي خير دليل على ما أقول إذ لم تعرف البشرية هذا الوجه إلا في عصور متأخرة ولذا اختلف العلماء في وجوه الإعجاز في القرآن قال ابن سراقة : اختلف أهل العلم في وجوه إعجاز القرآن فذكروا في ذلك وجوها كثيرة فقال قوم : هو الإيجاز مع البلاغة . وقال آخرون : هو البيان والفصاحة . وقال آخرون : هو الرصف والنظم . وقال آخرون : هو كونه خارجاً عن جنس كلام العرب . وقال آخرون : هو كون قارئه لا يكّل وسامعه لا يمل وإن تكررت

(١٢) الروم / ٨ .
(١٣) الذاريات / ٢١ .
(١٤) فصلت / ٥٣ .

عليه تلاوته . . . إلخ .

وقال الزركشي : أهل التحقيق على أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد على انفراده فإنه جمع ذلك كله . . . إلخ[١٥] .

ومن وجوه الإعجاز التي توصل العلماء إليها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي :

١ - إعجازه اللغوي[١٦] : ففي أسلوب القرآن تحد للثقلين جميعاً . فمن أين لأمي كالنبي ﷺ أو متعلم مهما أوتي من العلم أن يؤلف مثل ما احتوى عليه القرآن من آيات بهذه الفصاحة والاتساق .

٢ - إعجازه التشريعي[١٧] : وهذا الوجه يستطيع أي متأمل أن يدركه فهو ليس كالإعجاز اللغوي الذي لا يعرفه إلا من تعلم العربية وتذوقها لأن هذا التشريع تناول جوانب الحياة كلها كما أنه صالح لكل زمان ومكان مما جعل علماء الفقه والقانون على اختلاف نحلهم ومذاهبهم يُجمعون على مدى أهمية الفقه الإسلامي وضرورة الإقبال على دراسته والاستفادة منه .

٣ - إعجازه العلمي[١٨] : ذلك لأن القرآن تكلم في لغة العلم قبل كشفه كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم تستوحشها أذواق الأقدمين ولا معارفهم على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث .

٤ - تضمنه أخباراً غيبية لا علم لأحد بها[١٩] : وقد ذكر الله تعالى بعض المغيبات في كتابه وكانت غيباً حين الإخبار بها ثم حدثت كما أخبر مما يدل بوضوح على أن الذي أخبر بها قبل وقوعها هو عالم الغيب والشهادة . وقد

---

(١٥) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن جـ ٤ ص ١٤ ، ١٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

(١٦) السيوطي : معترك الأقران جـ ١ ص ٢٧ - ٢٩ ، الإتقان مرجع سابق جـ ٤ ص ١٤ ، ١٥ ، الباقلاني إعجاز القرآن ص ٥٤ ، ٥٥ ، الرافعي : إعجاز القرآن ص ١٧٣ وما بعدها ، د / دراز : النبأ العظيم ص ٧١ .

(١٧) انظر عبد الوهاب خلاف أصول الفقه ص ٣٢ ، ٣٣ ، د / يوسف القرضاوي شريعة الإسلام ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(١٨) انظر وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ص ١٤١ - ١٤٣ ، موريس بوكاى دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ٢١٣ .

(١٩) انظر رشيد رضا : الوحى المحمدي ص ٢٦١ ، أبو زهرة معجزة القرآن ص ٣٣٩ .

تمكن العلماء من كشف كثير من وجوه الإعجاز القرآني مثل إعجازه التاريخي وإعجازه الفلكي وإعجازه الطبي . . . إلخ . وقد فاجأ الخطّابي ت (٣٨٨هـ) معاصريه بوجه جديد للإعجاز يتصل بالعامل النفسي الوجداني ذلك هو صنيع القرآن بالقلوب وتأثيره في النفوس ووافقه على رأيه بعض العلماء كالجرجاني ت (٤٧١هـ) في الأسرار والدلائل إذ اعتبر مصدر البلاغة في الكلام تأثيره في النفوس[٢٠] .

وفي رأيي أن هذا الوجه عمدة وجوه الإعجاز القرآني على الإطلاق فالروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه هي مناط الإعجاز الحقيقي وهي المعجزة القائمة فيه أبد الدهر وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولذا كان هذا الوجه في حاجة إلى المزيد من إلقاء الضوء عليه كما سيأتي : -

إعجازه النفسي وروعته وهيبته

وهذا سر من أسرار الإعجاز في القرآن يكمن في ذاته وفي أثره على الأسماع وتأثيره في القلوب . فالقرآن فيه من عطاء الله ماتحبه النفس البشرية ويستميلها . إنه يخاطب فيها ملكات خفية لا نعرفها نحن ولكن يعرفها الخالق سبحانه وتعالى وهذه الملكات تنفعل حيثما يُقْرأُ القرآن والخطّابي (ت ٣٨٨هـ) كان أول من أشار إلى هذا الوجه حين قال : (في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم .

وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه ، عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق تقشعر منه الجلود ، وتفزع له القلوب . يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها)[٢١] وهذه الكلمات توجهنا

(٢٠) انظر محمد خلف الله ، محمد زغلوم سلام : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١٢ .

(٢١) بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ص ٧٠ .

إلى ناحية عظمى من نواحي إعجاز القرآن حيث توضح لنا كيف نقرت كلمات الله حبات القلوب ، وهزت جوانب الوجدان وامتزجت بأرق الأحاسيس واختلطت بأرق المشاعر حتى جعلت من السامع عقلاً يذعن وقلباً يخشع وخواطر تطمئن . وقد وافق أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٣هـ) مفهوم الخطّابي في هذا الأمر حيث يقول : (لم أسمع كلاماً ألصق بالقلب وأعلق بالنفس من فصل تكلم به بندار بن الحسين الفارسي وكان بحراً في العلم وقد سئل عن موضع الإعجاز من القرآن فقال : هذه مسألة فيها حيف على المفتى وذلك أنه شبيه بقولك ما موضع الإنسان من الإنسان ؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان ، بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته ودللت على ذاته وكذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء منه إلا كان ذلك المعنى آية في نفسه . . . وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده)[٢٢] ويقول السكاكي (ت ٦٢٦هـ) (إن الإعجاز يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكما يدرك طيب النغم العارض للصوت ولا يدرك تحصيله لغير ذوى الفطر السليمة)[٢٣] .

وهكذا نرى أن القائلين بهذا الوجه يرون أسرار الإعجاز تكاد تسطع أنوارها على القلب فتنفتح فيه أبواب الإيمان . فحلاوة كلامه عز شأنه تأخذ بمجامع القلوب وتستولى على وجود الإنسان كله وقد صح عن كليم الله موسى عليه السلام أنه كان يسد أذنيه لئلا يسمع كلام الخلق ، إذ صار عنده كأشد ما يكون من أصوات المخلوقات حتى لم يكن يستطيع سماعه بحدثان ماذاق من اللذات التي لا يحاط بها ولا تكيف عند سماع كلام من ليس كمثله شيء ، ولولا أنه سبحانه يغيبه عما ذاق عند مناجاته ، مما لا يقدر على وصفه لما أمكن أن يأنس إلى شيء من المخلوقات أبداً ولما انتفع به أحد ، فسبحانه من لطيف ما أوسع كرمه ، ومن أعجب الأمر في هذا عدم ذوبان الذات وتلاشيها حتى تصير عدما محضاً عند

---

(٢٢) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١٠٠ .

(٢٣) مفتاح العلوم : تلخيص وشرح سعد التفتازاني ص ٩١ .

إطلاعها من ذي الجلال على ما اطلعت عليه ، لولا أنه أثبتها وأمسكها[٢٤] .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الوجه النفسي . . . التأثيري من وجوه الإعجاز لا يقع مستقلاً بذاته بل لابد وأن يكون متصلاً بغيره من وجوه الإعجاز الأخرى ، كما أنه لا خلاف في الواقع بين القائلين بهذا الوجه وبين غيرهم من أصحاب الوجوه الأخرى للإعجاز . فإن تذوق الإعجاز لا يمنع من بيان الوجوه التي فجرت هذا التذوق . بل إن الوجوه البيانية كلها تذوقية تحرك المشاعر وتخاطب الوجدان وتؤثر في الأسماع وترقق القلوب[٢٥] .

إنه لاشك في أن هذا الوجه التأثيري وإن كان من أول الوجوه التي أدركها العلماء وأشاروا إليها في مصنفاتهم إلا أنه كان وسيظل وجها مشرقاً في حياة كل من اتصل بالقرآن الكريم وعاش معه بقلب سليم وروح صافية .

ففي القرآن الكريم طاقة روحية ذات تأثير بالغ الشأن في نفس الإنسان فهو يهز وجدانه ويرهف أحاسيسه ومشاعره ويصقل روحه ويوقظ إدراكه وتفكيره ويجلي بصيرته فإذا الإنسان نتيجة لتأثير القرآن يصبح إنساناً جديداً كأنه خلق خلقاً جديداً ، ذلك أن كل من يسمع القرآن سيجد له تأثيراً وحلاوة قد لا يستطيع تفسيرها ولكنها تجذبه إلى الإيمان .

ولهذه الحقيقة كان أئمة الكفر يخشون سماع الكفار للقرآن أن يميلوا إليه ولو كان لا يخاطب الملكات الخفية في النفس لما اهتموا بسماعهم له أولاً . ولكن شعورهم بقوته وقدرته وتأثيره في النفس البشرية جعلهم يمنعون سماعه ويعتدون على من يتلوه في الأماكن العامة شعارهم ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[٢٦] ولا يمكن أن يكون هذا مسلكهم إلا خوفاً مما يفعله القرآن من جذب النفوس الكافرة إلى الإيمان وهذا مما تميز به القرآن الكريم عن أي كتاب في العالم[٢٧] .

---

(٢٤) معترك الأقران جـ ١ ص ١٢ .

(٢٥) انظر : د / أحمد العمري : مفهوم الإعجاز القرآني ص ٢٦٢ .

(٢٦) فصلت / ٢٦ - (والغوا فيه أي شوشوا عليه) .

(٢٧) انظر : في ظلال القرآن جـ ٧ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، - انظر : الشيخ الشعراوي : معجزة القرآن (الكتاب الثاني) ص ١٤٦ بتصرف .

فأسلوبه المعجز قرع أسماعهم بكلام لم يعهدوه وأسلوب لم يستطيعوا أن يحاكوه لأنه تنزيل من رب العالمين . وهذا الإعجاز لا يمكن أن يتجاهله كل من يعرف قيمة الكلام وبلاغة القول وقوة النظم وفصاحة الألفاظ .

ولم يعرف في تاريخ البشرية أن كلاماً قارب القرآن في قوة تأثيره في العقول والقلوب فهو الذي قلب طباع الأمة العربية وحولها عن عقائدها وتقاليدها وصرفها عن عاداتها وعداواتها وصدف بها عن أثرتها وثاراتها وبدلها بأميتها حكمة وعلماً وبجاهليتها أدباً وحلماً ، وألف من قبائلها المتفرقة أمة واحدة سادت العالم بعقائدها وفضلها وحضارتها وعلومها[٢٨] . . . إلخ .

وهذا يؤكد تأثير القرآن في الأمة العربية بخلاف غيرهم من اليهود من أهل الكتاب الذين ليس لكتابهم أدنى تأثير في نفوسهم .

مقارنة بين تأثير القرآن في العرب والتوراة في بني إسرائيل

إن ما رآه بنو اسرائيل بمصر من آيات موسى عليه السلام ثم ما رأوه في مدة التيه في سيناء ، وما أدركوه من عناية الله تعالى بهم ، ومن سماعهم كلام الله تعالى بآذانهم في لهيب النار المشتعلة على ما ترويه توراتهم - ولم يثبت عندنا التكليم إلا لنبيهم - لم يتغير بذلك كله ما كان بأنفسهم من تأثير الوثنية المصرية وخرافاتها الراسخة في قلوبهم ولا من تأثير السياسة الفرعونية المستبدة في أخلاقهم فقد عاندوا موسى وعذبوه واستمروا على عبادتهم للعجل الذهبي حتى وصفهم الله في التوراة بالشعب الصلب الرقبة - كناية عن البلادة والعناد - فأين بنوا إسرائيل من أصحاب محمد ﷺ الذين تربوا بسماع القرآن وترتيله وتدبره ، في رسوخهم في الإيمان وصبرهم على أذى المشركين ومجاهدة أعوانهم من أهل الكتاب وكانوا مضرب المثل في الرحمة والعدل وموضع الحيرة لعلماء الاجتماع وقواد الحرب[٢٩] .

---

(٢٨) انظر : محمد عبده : تفسير المنار جـ ١ ص ٢٠٤ .

(٢٩) في مقدمتهم نابليون بونابرت وهو من أشهر قواد الحرب في العالم وهو القائل إن العرب فتحوا نصف العالم في نصف قرن وصرح بأنه يدين بالإسلام . انظر شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامي حـ ١ ص ٢٤ .

وأني يبلغ الشعب الذي وصفه ربه في كتابه بالشعب المتمرد الصلب الرقبة[٣٠] - درجة الذين وصفهم رب العالمين بقوله : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الآية[٣١] .

لا جرم أن سبب هذا كله تأثير القرآن بهذا الأسلوب الذي نراه في المصحف فقد كان النبي ﷺ يجاهد به الكافرين كما أمره الله بقوله : (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً)[٣٢] ثم كان به يربى المؤمنين ويزكيهم كما قال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ الآية[٣٣] .

وبهدايته والتأسي بمبلغه ﷺ ربوا الأمم وهذبوها وقلما يقرؤه أحد كما كانوا يقرأون إلا ويهتدي به كما كانوا يهتدون على تفاوت في الاستعداد النفسي واللغوي واختلاف الزمان لا يخفي[٣٤] .

---

(٣٠) التثنية / ٣١ فقرة - ٢٨ .

(٣١) - الفتح / ٢٩ .

(٣٢) الفرقان / ٥٢ .

(٣٣) آل عمران / ١٥٩ .

(٣٤) انظر : الوحي المحمدي ص ١١١ وما بعدها مرجع سابق .

الطبيعة التأثيرية للقرآن ومنهجه في تحقيقها

إنها طبيعة الهداية والريادة والهيمنة لكل من سمعه إنساً كان أو جناً حياً كان أو جامداً . أما أثر هذا في أصحاب الحياة فيتضح مما يأتي : -

١ - تأثر الجن بسماعهم للقرآن :

يدل القرآن والسنة على أن نفراً من الجن رأوا رسول الله بنخلة عامداً إلى عكاظ وقد حيل بين الجن وبين استراق السمع من السماء فكانوا يبحثون عن السبب في أرجاء الأرض فاستمعوا إليه وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فتأثروا بسماعهم للقرآن وآمنوا به ورجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان قال تعالى (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين)[٣٥] وفي هذا تصوير للأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية بغير تململ أو ضجر فلما انتهت التلاوة سارعوا إلى قومهم وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه مالا تطيق السكوت عليه أو التلكؤفي إبلاغه والإنذار به كما حفلت مشاعرهم بمؤثر قاهر غلاب يدفعهم دفعاً إلى الحركة به والاحتفال بشأنه وإبلاغه للأخرين في جد واهتمام . إن وقع هذا القرآن في القلوب هائل ضخم لا يقف له قلب غير مطموس ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مشدودة بالهوى .

ومن ثم لمس هذه القلوب لأول وهلة فإذا هي صامتة مأخوذة تنطق بأنه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم فتقول ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ الآية[٣٦] ثم انقلبوا له داعين متحمسين : (ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم)[٣٧] فأنزل الله على نبيه ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾[٣٨]

(٣٥) الأحقاف / ٢٩ .
(٣٦) الأحقاف / ٣٠ .
(٣٧) الأحقاف / ٣١ .
(٣٨) الجن / ١ .

وإنما أوحى إليه قول الجن[٣٩] ولم يرهم الرسول ﷺ في هذه المرة ولم يقرأ عليهم وإنما آذنته بهم شجرة[٤٠] ثم أوحى إليه خبرهم[٤١] وبعد هذه الحادثة دعا الجن رسول الله مرة وهو معسكر بأصحابه خارج مكة فذهب معهم وقرأ عليهم القرآن ثم أرى أصحابه آثارهم وآثار نيرانهم[٤٢] وقد بين الشعبي أنهم وفد جن نصيبين[٤٣] . إن جلال المعاني القرآنية كان له جاذبية حلوة تستجيب لها العاطفة النيرة وينشدّ إليها القلب الصادق ويتذوق حلاوتها الوجدان السليم .

٢ - تأثير القرآن الكريم في أنفس العرب :

لقد كان تأثير القرآن في أنفس العرب وإحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم على نوعين :

أولهما ما أحدثه من الزلزال في المشركين . وثانيهما تزكيته للمؤمنين ونزعه كل ما كان بأنفسهم من غل وجهل وظلم وفساد ويتضح ذلك فيما يأتي :

(أ) تأثير القرآن في أنفس المشركين :

لقد تأثر المشركون بروعة بلاغته ودهشة نظمه وأسلوبه الجاذب لفهم دعوته والإيمان به إذ لا يخفي حسنها على أحد فهمها ، وكانوا يتفاوتون في ذلك تفاوتاً كبيراً لاختلاف درجاتهم في بلاغة لغته وفهم معانيه العالية . روى أن عمر بن الخطاب رق قلبه إليه متأثراً ببيانه الساحر وروعة تصويره حين توجه إلى ختنه فبطش به وبأخته . . . وبعد حوار أخذ الصحيفة التي كان خباب بن الأرت يقرئهما إياها وفيها سورة طه فلما قرأ صدراً منها قال (ما أحسن هذا الكلام

---

(٣٩) انظر فتح الباري جـ ٢ ص ٢٥٣ ، جـ ٨ ص ٦٦٩ - ٦٧٠ ، مسلم بشرح النووي جـ ٤ ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، والترمذي جـ ٥ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٤٠) فتح الباري جـ ٧ ص ١٧١ ، مسلم بشرح النووي جـ ٤ ص ١٧١ .

(٤١) فتح الباري جـ ٢ ص ٢٥٣ ، مسلم بشرح النووي جـ ٤ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٤٢) مسلم بشرح النووي جـ ٤ ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(٤٣) فتح الباري جـ ٧ ص ١٧١ من حديث أبي هريرة وانظر في ظلال القرآن جـ ٧ ص ٤٢٥ - ٤٣٣ ، ابن كثير جـ ١ ص ١٦٦ - ١٧٣ ، ابن كثير السيرة جـ ٢ ص ١٥٣ تحقيق مصطفى عبد الواحد ، القرطبي : جـ ١٦ ص ٢١٠ - ٢١٨ .

وأكرمه) ثم ذهب إلى النبي ﷺ وأعلن إسلامه[٤٤] . فكان للقرآن الكريم تأثير قوى في اجتذاب عمر إلى صف المسلمين لتذوقه للقرآن وإعجابه به . وقصة الوليد بن المغيرة المخزومي توضح مدى ما كان من تأثير القرآن في نفوس المشركين . وتتلخص قصتة في أن النبي ﷺ قام في المسجد يصلي والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه فقال لهم تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتوه يخنق قط ؟ وتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر وما فيكم أحد أعلم بالشعر منى فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ يسألهم ويجيبونه فسألوه عن رأيه في بلاغة القرآن فأمعن في التفكير ثم قال : ما هو إلا سحر يؤثر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر وهذا هو السحر المبين[٤٥] وما استطاع أن يقول كلمة أخرى في الصد عنه بعد إلحاح أبي جهل عليه باقتراحها إلا بتكلف لمكابرة عقله ووجدانه وبعد أن فكر وقدر وعبس وبسر وأدبر واستكبر ، وكان من قبل قد اعترف له بكلمته العالية فيه بأنه الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه والذي يحطم ما تحته ، فكانت كلمة صادرة من نور عقله وصميم وجدانه نابعة من تأثير القرآن على قلبه ولبه .

وقصة عتبة بن ربيعة نموذج آخر من النماذج التي تكشف عن تأثير القرآن الكريم في نفوس المشركين وكان عتبة سيداً في قومه فجاء إلى النبي ﷺ وكلمه فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليه : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ

---

(٤٤) فتح الباري جـ ٧ ص ١٧٦ ، ١٩٣ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ٢٦٧ ، ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ٣٦٩ ، الباقلاني إعجاز القرآن ص ٥٣ ، ابن كثير : السيرة النبوية ، جـ ٢ ص ٣٢ وما بعدها تحقيق مصطفى عبد الواحد ، وابن حجر الإصابة : جـ ٤ ص ٢٨٠ .

(٤٥) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، عبد الوهاب خلاف أصول الفقه ص ٣١ ، الوحي المحمدي : ص ١١٨ .

وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[٤٦] فأمسك عتبة بيده على فيّ النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكف . وفي رواية . فجعل النبي ﷺ يقرأ وعتبة مصغ ملق يديه خلف ظهره معتمداً عليهما حتى انتهى إلى السجدة فسجد ﷺ . وقام عتبة لا يدري بما يراجعه ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه فاعتذر لهم وقال : لقد كلمني بكلام والله ما سمعَت أذناى بمثله قط فما دريت ما أقول له ، ولما أفصح عن رأيه قالوا : سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فاصنعواما بدا لكم[٤٧] .

وقصة استماع صناديد قريش إلى قراءة النبي ﷺ نموذج آخر على قوة تأثير القرآن الكريم الذي كان يجذب رؤوس الكفر ليلاً لاستماع تلاوته ﷺ في بيته على ما كان من نهيهم عنه ونأيهم وتواصيهم أن لا يسمعوا له فقد خرج أبو سفيان بن

---

(٤٦) فصلت من ١ - ١٣ .

(٤٧) السيرة النبوية جـ ١ ص ٣١٣ ، تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٩٢ ، ٩٣ ، في ظلال القرآن جـ ٧ ص ٢٣٢ وما بعدها ، القرطبي : جـ ١٥ ص ٣٣٧ - ٣٤١ ، ابن كثير : السيرة النبوية جـ ١ ص ٤٩٩ ، السيوطي : معترك الأقران جـ ١ ص ٢٤٣ ، والأصبهاني : دلائل النبوة جـ ١ ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

حرب ، وأبـو جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو فرادي مستخفين متسللين ليلاً ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له . . . حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ويجمعهم الطريق . فعلوا ذلك ثلاث ليال وفي كل ليلة يتعاهدون ألا يعودوا ثم في نهاية الأمر تلاوموا ثم تعاهدوا ألا يعودوا[٤٨] . ما هذا السحر الذي يسمعون وما هذه الحلاوة التي لا يطيقون البعد عنها ؟ وما هذا الغرام الذي يهيمون به ويتركون من أجله كل قيمة وكل نوم وكل راحة حتى يبيت هؤلاء السـادة متلصصين متنازلين عن كرامتهم ليسمعوا القرآن ويترنموا بآياته وكلماته . إنه لا شك شيء غير عادي وشيء يدعو إلى التأمل والدهشة . ويتجلى هذا التأثير القرآني أيضاً في قلب المغيرة بن شعبة حين قرأ عليه الرسول ﷺ القرآن فأخذته رعدة وقشعريرة ، وانهد جبروته وخشع حديثه واحتار في أمره وقد سألته قريش عن القرآن فقال : ماذا أقول ؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني ولا أعلم برجزه أو بقصيده مني ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه يعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته[٤٩] .

وهذا التأثير للقرآن هو الذي حملهم على صد النبي ﷺ بالقوة عن تلاوته في البيت الحرام وفي أسواق الموسم ومجامعه متأولين أنه كان يقرأ القرآن خاشعاً أواها متـألها فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الإيمان مالم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين[٥٠] . وهذا هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق رضى الله عنه من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام لما لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب إلى الإسـلام فاتخـذ مسجداً بفناء داره فمنعوه منه خشية على نسائهم وأبنائهم

---

(٤٨) انظر الوحي المحمدي ص ١٢٠ ، الرافعي : إعجاز القرآن ص ٣١٤ ، السيرة النبوية جـ ١ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، البيهقي : دلائل النبوة جـ ١ ص ١٩٩ ، ابن كثيرة السيرة النبوية جـ ١ ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ مرجع سابق .

(٤٩) ابن كثير السيرة النبوية جـ ١ ص ٤٩٩ ، الأصبهاني دلائل النبوية جـ ١ ص ٣٠٣ ، البيهقي دلائل النبوة جـ ٢ ص ١٩٨ ، السيوطي معترك الأقران جـ ١ ص ٢٤٤ .

(٥٠) الوحي المحمدي ص ١٢٠ .

فخرج مهاجراً فقابله ابن الدغنة فأرجعه إلى مكة في جواره[٥١] .

ومما يؤكد روعته وهيبته وتأثيره ما روى أن جبير بن مطعم قال سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب (والطور) فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾[٥٢] كاد قلبي أن يطير وفي رواية (ذلك أول ما دخل الإيمان قلبي)[٥٣] ومما يؤكد جاذبية القرآن وتأثيره ما حدث مع الطفيل بن عمرو الدوسي وكان سيداً مطاعاً في قومه ولما قدم مكة اجتمع به القرشيون وجرياً على سياسة التشويش حذروه من محمد ونصحوه فاقتنع بكلامهم وحشى صماخ أذنيه قطناً حتى لا يسمع شيئاً منه وغدا الرجل إلى الكعبة وتصادف وجود الرسول ﷺ وبالفعل حاول الرجل أن لا يسمع منه ولكن ما وهبه الله لرسوله من جاذبية جعلته يأبى إلا أن يسمع بعض ما يقرأ به ثم ذهب إليه في بيته وحكى له ما حدث ثم قال : ولكن الله أبى إلا أن يسمعني قولك فسمعت قولاً حسناً فاعرض على أمرك فعرض الرسول ﷺ عليه الإسلام وتلا عليه القرآن مما جعله يقول فلا والله ما سمعت قولاً أحسن منه وأمراً أعدل فأسلمت[٥٤] .

ومن التأثير القرآني ما ورد في حديث إسلام أبي ذر الغفاري قال (ما سمعت بأشعر من أخي أنيس لقد ناقض اثنى عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم وقد انطلق إلى مكة وجاء أنيس إلى أبي ذر بخبر النبي ﷺ فقال أبو ذر : فما يقول الناس ، قال يقولون شاعر كاهن ساحر لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعته على أوزان الشعر فلم يلتئم وما يلتئم على لسان أحد وإنه لصادق وإنهم لكاذبون)[٥٥] ثم قدم على النبي ﷺ فأعلن إسلامه . وبقراءة حديث

(٥١) انظر : ابن هشام السيرة النبوية جـ ٢ ص ١٣ ، البخاري باب الهجرة جـ ٤ ص ٧٤ ، الوحي المحمدي ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٥٢) الطور / ٣٥ - ٣٧ .

(٥٣) راجع فتح الباري جـ ٧ ص ٢٤٩ ، الإصابة جـ ١ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، معترك الأقران جـ ١ ص ٢٤٣ ، النبأ العظيم : ص ٩٣ .

(٥٤) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

(٥٥) أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ص ٦٩ ، رحمت الله الهندي : إظهار الحق ص ٣٦٩ .

العقبة الأولى تبين أن وفد الخزرج أسلموا بمجرد أن تلا عليهم الرسول ﷺ آيات من القرآن عندما لقيهم لأول مرة في العقبة ثم لما عادوا إلى يثرب أظهروا الدين بها حتى لقد قيل فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن[٥٦] . وفي حديث بيعة العقبة أيضاً أن الرسول ﷺ ندب صاحبه مصعب بن عمير ليذهب مع أصحاب العقبة إلى يثرب ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام فنزل هناك على أسعد بن زرارة فلما سمع بذلك سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ضاقاً بهما وأنكرا موضعهما من الحي . فذهبا إليه زاجرَيْن لهما فعرض مصعب للدعوة بالحكمة ثم تلا آيات من القرآن نفذت إلى قلبيهما فمزقت عنه حجب الغفلة وغشاوة الضلال وأعلنا إسلامهما[٥٧] الواحد تلو الآخر . وروى أن النجاشي حينما سمع صدر سورة مريم من جعفر بن أبي طالب بكى حتى اخضلت لحيته . وقال إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة بكى واحدة ، وروى أن وفداً بعثهم النجاشي إلى رسول الله ﷺ ليروه ويعرفوا حاله فقرأ النبي ﷺ عليهم القرآن فبكوا وآمنوا . فأنزل الله فيهم ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ الآية[٥٨]

ورجعوا إلى النجاشي فآمن ولم يزل مؤمناً حتى مات فصلى عليه النبي ﷺ[٥٩] . كما ورد أن وفداً من نجران قدم على أبي بكر الصديق في شيء من أمورهم فأمر من يقرأ القرآن بحضرتهم فبكوا بكاء شديداً . فقال أبو بكر : هكذا كنا حتى قست القلوب[٦٠] .

وقد توالت الأيات القرآنية لتسمع الآذان وتفتح الأبصار وتتحرك القلوب

---

(٥٦) الخطابي : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٧١ .

(٥٧) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ابن الأثير : أسد الغابة جـ ٢ ص ٣٩٦ .

(٥٨) المائدة / ٨٣ .

(٥٩) ابن عطية : المحرر الوجيز جـ ٥ ص ٦ ، ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ٣٢٥ ، ٣٣٥ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٥٦ ، ابن كثير : البداية جـ ٣ ص ٧٠ ، والطبري : تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(٦٠) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٣ ص ١٥١ تحقيق هارون .

وتعي العقـول ويستضيء الـوجـدان ، فالقـران يرضى الـطموح العقلي ويلبي الإحساس القلبي ويشبع القوى الفطرية وينعش الطاقة الشعورية وينشط الإرادة الإنسانية ويحرك الدوافع الخيرة ويمنح الإنسان الصفاء والطمأنينة والأمن النفسي (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[٦١] هكذا كان تأثير القرآن في القلوب الصلدة رغم المعاندة والمكابرة والعداوة وهذه هي المعجزة التي أيد الله بها نبيه الأمي والتي غير بها نفوساً وأحيا قلوباً وأنار بصائر وربّي أمة وكون دولة في سنىّ تعد على الأصابع .

وإذا كان قلب العصـا حية معجـزة فإن تغيير العقـول والقلوب أبلغ في الإعجاز وإذا كان إحياء الميت من الخوارق التي أيد الله بها بعض أنبيائه فإن إحياء أمـة أمية من الجهـل والرذيلة وجعلها مصدر إشعاع وهداية هو الخارق الذي تتضاءل في جوانبه جميع المعجزات . ومما تقدم نخلص إلى حقيقتين ثابتتين هامتين نشير إليهما بإجمال :

الحقيقة الأولى : إن قريشاً مع شدة ملاحاتها للنبي ﷺ ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون وذكر أوثانهم بغير ما يؤمنون لم يتحركوا لأن يقولوا مثله وأذعنوا لبلاغته وقوته وما أسلم من أسلم منهم إلا بعد أن قرأ فيه واقتنع به كما أن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثله فما فعلوا بل ما تحرك العقلاء منهم لأن يفعلوا حتى لا يسفوا في تفكيرهم وهم أمام رجل كبير في قومه وعقله ومعه آيات الله تعالى البينات فدل هذا على عجز مطلق .

الحقيقة الثانية : إن القرآن جذب العرب إلى الإيمان بما فيه من روعة وقوة بيان وإيجاز معجز وأقوال محكمة وقصص تطول وتقصر وهي مملوءة بالعبر في طولها وقصرها وإطنابها الرائع وإيجازها الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوفاها بالعبارة الناصعة والإشارة الواضحة فما كان الإيمان نتيجة تحد للمقاويل منهم وعجز وإن كان العجز ثابتاً ، وإنما كان الإيمان ثابتاً بالقرآن فهو الذي جذب إلى الإيمان بما فيه من بيان أدركوا أنه فوق طاقة البشر وأنه حقائق ثابتة كما قال تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا

---

(٦١) الرعد / ٢٨ .

الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز)[٦٢] .

وإن الثابت مع ذلك أنه لم يحاول أحد من أهل البيان أن يأتي بمثله . ولم يعرف ذلك وإن في التاريخ لعبرا غر أصحابها الغرور فانطلقوا يواجهون هذا التحدي فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم بل نزلوا به إلى ضرب من السخف والتفاهة باد عواره باق عاره وشناره . فمنهم عاقل استحيا أن يتم تجربته فحطم قلمه ومزق صحيفته[٦٣] . ومنهم ماكر وجد الناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم مهاتراته فطوى صحفه وأخفاها إلى حين[٦٤] . ومنهم طائش برز بها إلى الناس فكان سخرية للساخرين ومثلاً للآخرين[٦٥] .

هذه بعض تفاهات القول عن بعض الذين حاولوا معارضة القرآن وقد

---

(٦٢) الحديد / ٢٥ .

(٦٣) كما حدث مع ابن المقفع وأبي الطيب المتنبي والمعري وأبو الحسين أحمد بن يحى المعروف بابن الراوندي . انظر الرافعي : إعجاز القرآن ص ١٧٢ - ١٨٥ ، ابن قتيبة الشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٧٥ تحقيق الشيخ أحمد شاكر .

(٦٤) من ذلك ما اشتهر عن تلك الكتب التي وضعها زعماء نحلتي القاديانية والبهائية لتكون دستوراً دينياً لهم كالقرآن وقد لفقوها تلفيقاً ركيكاً من آيات قرآنية وكلمات عامية وبدلوا فيها أصول الإسلام وفروعه وادعوا فيها لأنفسهم النبوة أو الألوهية ولكن أتباعهم لم يجسروا أن يذيعوا تلك الكتب وشمس العلم طالعة فأخفوها إلى أن يجيء وقت يفشو فيه الجهل بالعلوم والآداب وتستعد فيه النفوس لقبول أمثالها وأني لهم ذلك اليوم . انظر : النبأ العظيم ص ٨٢ .

(٦٥) ومن هؤلاء مسيلمة بن حبيب الكذاب وطليحة بن خويلد الأسدي وسجاح بنت الحارث ابن عقبان . فمثلاً زعم مسليمة أنه يوحى إليه بكلام مثل القرآن وما صنع شيئاً إلا أنه كان يعمد إلى آي من القرآن فيسرق أكثر ألفاظها ويبدل بعضها كقوله (إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر) أو يجيء على وزن الكلمات القرآنية بكلمات سوقية كقوله (والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً والخابزات خبزاً) وهكذا لم يستطع وهو العربي اللسن أن يحتفظ بأسلوب نفسه بل نزل إلى حد الإسفاف وأتي العبث الذي يأتيه الصبيان في مداعبتهم بقلب الأشعار والأغاني عن وجهها ، وهذا ليس من المعارضة بل من المحاكاة والإفساد ، ولما أراد استهواء قومه من ناحية أخرى ظنها أهون عليه وأقرب تأثيراً في نفوسهم أتى بما يشبه كلام الكهان لتعظيمهم إياهم فلم يفلح أيضاً في هذه الحيلة فقد كان كثيرون من أشياعه يعرفونه بالكذب والحماقة ويقولون إنه لم يكن في تعاطيه الكهانة حاذقاً ولا في دعواه النبوة صادقاً وإنما كان اتباعهم إياه من باب قولهم (كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر) انظر : النبأ العظيم ص ٨٢ - ٨٤ هامش ، الإسلام يتحدى ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، والباقلاني إعجاز القرآن ص ٢٤٠ تحقيق أحمد صقر .

أسفوا في القول وهبطوا في التفكير مما لم يرد أن ينحدر إليه أرباب البيان من قريش لأنهم يعرفون مقام ما يسمعون من كلام رب العالمين ، استطاعوا أن يجحدوا الحق . وقد عرفوه ، ولم يستطيعوا أن ينزلوا بمقامهم من الإدراك البياني فيفندوا بيانهم وذوقهم الكلامي ، وإن ارتضوا أن يفسدوا عقائدهم ويكابروا في دينهم ويكذبوا رسالة ربهم . فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فلينظر في تلك العبر وليأخذ بأحسنها ومن لم يستحْيِ فليصنع ما يشاء .

(ب) تأثير القرآن في أنفس المؤمنين :

لقد كان من أثر القرآن في أنفس المؤمنين أن جعلهم لا يحنون هامتهم إلا لمنزل القرآن فهو وحده القوى المتين فلا اختيار غير اختياره ولا شريعة غير شريعته وحين يستوعب الإنسان كلمات ربه يحس بيده في كل ما حوله ويعيش في أنسه ورعايته ، وكان كل من يدخل في الإسلام قبل الهجرة يلقّن ما نزل من القرآن ليعبد الله بتلاوته فيرتل ما يحفظه في صلاته وفي غيرها ليلاً ونهاراً اقتداء بالنبي ﷺ ومما ورد في صفة الصحابة رضى الله عنهم أن من كان يمر ببيوتهم ليلاً يسمع منها كدوى النحل من تلاوة القرآن ومدارسته وفهمه فتأثرت به حياتهم . فقراءة الصحابة للقرآن في الصلاة وتدبره في غير الصلاة جعلت لهذه الفئة سمات وخصائص حيث غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية وزكت بأخلاقهم نحو الكمال وأحدثت أعظم ثورة روحية اجتماعية في التاريخ وربما كان أحدهم يقوم الليلة بآية واحدة يكررها متدبراً لها . وكانوا يقرأونه في كل حال كما وصفهم الله بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٦٦] .

وأعظم ذكر الله تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه الحسنى وصفاته المقدسة وأحكامه وحكمه وسننه في خلقه ، وأفعاله في تدبير ملكه وقد وصف الله تعالى فعل القرآن في هؤلاء المؤمنين بقوله (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني

---

(٦٦)ال عمران / ١٩١ .

تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله)[٦٧] ولو كان القرآن ككتب القوانين والفنون لما كان لتلاوته كل ذلك التأثير في قلب الطباع وتغيير الأوضاع ، بل لكانت تلاوته تمل فتترك ، فأسلوب القرآن المميز من أعظم أنواع إعجازه اللغوي وتأثيره الروحي ومن ارتاب في هذا فلينظر في المسائل التي تشتمل عليها السورة منه وليحاول كتابتها نفسها أو مثلها بأسلوب تلك السورة ونظمها أو أسلوب سورة أخرى كالسور التي تكرر فيها الموضوع الواحد بالإجمال الموجز تارة وبعض التفصيل تارة وبالإطناب فيه أخرى كالاعتبار بقصص الرسل مع أقوامهم في قصار المفصل (كالذاريات والقمر والحاقة) وفيما فوقها (كالمؤمنون والشعراء والنحل) وفيما هو أطول منها (كالأعراف وهود) ثم لينظر ما يفضي إليه عجزه من السخرية والتكرار المملول الذي يغثى منه الذوق غثياناً وتمجه القلوب وتستفرغه استفراغاً[٦٨] . وما كان محمد ولا أحد من أهل عصره يعلمون هذا ولكن الله يعلم من طباع الأمم والجماعات فوق ما يعلمه حكماء كل عصر وإنما القرآن كلامه وليس فيه من التكرار إلا ماله أكبر الشأن في انقلاب الأفكار وتغيير ما في الأنفس من العقائد والأخلاق ، ولو جمعت أبلغ خطب رجال السياسة التي أحدثت التأثير في أحزابهم وقرئت بعد ذلك مرات قليلة لسارع الملل إلى نفس كل قاريء حتى أتباع ذلك الخطيب أنفسهم . وقراءة القرآن لا يملها أحد يفهم معانيها ويذوق حلاوة أسلوبها . ولذلك كان وصف الله للخاشعين من عباده عند تلاوة كتابه (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً)[٦٩] ولما ذكر الله تعالى خواص الأنبياء والمرسلين وذكر فضائلهم ومراتبهم أخبر أنهم كانوا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن (خروا سجداً وبكيا)[٧٠] . والشعور بالرهبة والرقة يغمر المؤمن وهو يستمع إلى قصص الأولين والآخرين بلسان الحق . ثم يتبعها فيض من المواعظ والحكم

---

(٦٧) الزمر / ٢٣ .
(٦٨) انظر : الوحي المحمدي ص ١٢٢ ، ١٢٣ بتصرف .
(٦٩) الاسراء / ١٠٧ - ١٠٩ .
(٧٠) مريم / ٥٨ .

والمغـازي والعبر تقشعر منه الجلود ويرسخ معناه في القلوب . فللقرآن تأثيرات بالغة على النفوس والقلوب التي استجابت لهديه واستضاءت بنوره تنعكس على البدن كله بالبكاء والخشية والخضوع والسجود لله رب العالمين .

٣ - تأثير القرآن في الجماد :

فإن القـرآن يعرض لهذا الأثر وهذا الزلزال من الخشية في الصخر الجامد والحجر الصلد فيقول (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)[٧١] وهي صورة تمثل الحقيقة الماثلة الكائنة لهذا القرآن فإن فيه روعة وثقلاً وأثراً مزلزلاً لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته فإن اللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحاً لتلقي شيء من حقيقـة القـرآن يهتـز فيهـا اهتـزازاً ويرتجف ارتجافاً ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام أو أشد . والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل . . . إلخ)[٧٢] والذين أحسوا شيئاً من حس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقـاً لا يعبر عنه إلا هذا النص القرآني المشع الموحي (وتلك الأمثال نضربها للنـاس لعلهم يتفكرون) وهي حقيقة جديرة فعلاً بأن توقظ القلوب والأفهام والعقول وتبعث فيها التأمل والفكر والخشوع .

نجد هذه الحقيقة في القلوب الصلدة التي وصفها القرآن بأنها أشد صلابة من الحجارة والصخر ، في قلوب المشركين التي وصفها القرآن في قوله ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٧٣] .

(٧١ ، ٧٢) الحشر / ٢١ .

(٧٣) البقرة / ٧٤ .

منهج القرآن في التأثير النفسي :

إن منهج القرآن في التأثير في النفس الإنسانية يكمن في أنه يعقد صلة دائمة بينها وبين الله في كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور إنه يريد أن يجعل من إشراقة روح الإنسان منهج حياة ويستخدم لذلك عدة وسائل منها على سبيل المثال ما يأتي :

١ - دعوة الإنسان إلى التفكر في خلق الله :

فالقرآن يدعو الإنسان إلى أن يفتح بصيرته على آيات الله في الكون ويستشعر من ورائها يد القدرة الخلاقة المبدعة في أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس ويوقظها من إلفها وعادتها . وللقرآن في هذا الجانب قدرة عجيبة فإيقاظ النفس من إلفها ليس مهمة ميسرة ولكن أسلوب القرآن الساحر ينقل الإنسان نقلاً من إلفه وعادته إلى مركز الحس بكامل وقعه وتدفقه ومن ثم يعيش الأشياء من حوله كأنها تحدث لأول مرة فيعيش الإنسان مع الكون في لقاء دائم يتجدد في داخل النفس وفي صفحة الكون لا ينفد ولا يزول(٧٤) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ إلخ الآية(٧٥)

وما أكثر ما ورد من آيات في القرآن لهذا الغرض . والقرآن في ذلك يربط بين القلب البشري وبين الله كما أنه يهديه من خلالها في داخل النفس وفي واقع الحياة .

٢ - الموعظة :

ففي النفس استعداد فطري للتأثير بما يلقي إليها من الكلام والموعظة المؤثرة تفتح طر يقها إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان وتهزه هزاً وتثير كوامنه وإن

(٧٤) انظر محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ص ٥٢ - ٦٠ ط ثانية دار دمشق بتصرف .
(٧٥) البقرة / ١٦٤ .

كانت لا تكفي وحدها في التأثير في النفس إذا لم تقترن بها القدوة وحين توجد القدوة الصحيحة فإن الموعظة تكون ذات أثر بالغ في النفس وتصبح دافعاً من أعظم الدوافع في تزكيتها ويمكن حصر أسلوب الموعظة في القرآن فيما يأتي :

(أ) الـترغيب : ويقصد به كل ما يشوق العباد في نيل رضا الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة وهذا هو نهج الرسل والأنبياء وإليه يشير قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً)[٧٦] كما أن الوعد بالخير يشمل نعم الدنيا والآخرة من أجل ذلك كان وعد الله بالمثوبة على ما يقدم الإنسان من خير أو يسدى لغيره من معروف ويأتي في صورتين : الأولى صورة الجزاء العاجل والثانية صورة الجزاء الآجل يوم القيامة ويجمع الصورتين قوله تعالى : (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين)[٧٧] والآيات في هذا الباب كثيرة .

(ب) الترهيب : وهو يعني كل ما من شأنه حمل الإنسان على البعد عن المعاصي بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة كما في قوله تعالى (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً)[٧٨] . والترهيب والوعيد يشمل شقاء الإنسان في الدنيا والآخرة قال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى)[٧٩] والآيات التي تحذر من المعصية في القرآن كثيرة وليس هناك أبلغ في التأثير بالموعظة من الاتصال بكتاب الله تلاوة وتأملاً وفهما ليفتح منافذ القلب إلى هذا الكتاب العظيم لتنساب أنواره إلى كيان المسلم فتزيل أدواءه وظلمته وتبعث فيه الحياة الحقيقية قال تعالى : (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين)[٨٠] .

---

(٧٦) الإسراء / ٩ .
(٧٧) النحل / ٣٠ .
(٧٨) الإسراء / ١٠ .
(٧٩) طه / ١٢٤ .
(٨٠) آل عمران / ١٣٨ .

٣ - القصة القرآنية :

ذلك لما للقصة من سحر يسحر النفوس وهذا أمر قديم قدم البشرية والقرآن يدرك فيها هذا الميل الفطري ويدرك مالها من تأثير ساحر على القلوب فيستخدمها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم والتأثير وقد حوى القرآن كثيراً عن الأمم السابقة فذكر معاشهم ووصف حياتهم وبين عقائدهم ووضح مواقفهم من رسل الله إليهم وبـذلك حفظ لنا مادة قصصية مشتملة على الأحداث والأشخاص والحـوار والـزمان والمكان . والقصة القرآنية تناسب طاقة البشر لأنها رواية عن أخبـارهم وقد اختارها الله بدقة وقص منها على الخصوص ما هو هادف ومؤثر وجعله وحيا باقياً يلا ئم البشر دائـماً حيث تملك قوة الاقنـاع من خلال التأثير الإيجابي في النفس بتلاوة القرآن أو سماعه أو مدارسته[٨١] فهو القصص الحق كما قال تعـالى : (إن هذا لهو القصص الحق)[٨٢] والقـرآن حين يعـرض قصص الأنبياء لم يقصد بها تاريخ الرسول مع قومه وإنما المقصود ما فيها من دروس وعبر قال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب)[٨٣] فهو يأخذ من القصة ما يحقق أهـدافـه من التهذيب والوعظ ويؤثر بها التأثير الذي يجعل وقعها على الأنفس وقعـاً استهـوائياً يستثير منها العاطفة والوجدان فحينا يقص القصة إلى نهايتها كما في سورة يوسف وفي معظم الأحيان يأخذ من القصة بعضها لأن فيه ما يحقق الهدف وقد يشير إلى القصة تلميحاً اعتماداً على أن القصة معروفة مشهورة وفي القصص القرآني دراسات مستفيضة أبرزت ما فيه من دروس وعبر لها تأثيرها على نفوس الناس وعقولهم .

٤ - القَسَمَ في القرآن :

يؤدي القَسَمَ دوره في التأثير النفسي والعاطفي بواسطة المقسم به والمقسم عليه وبهـما معـاً لأن العقل العربي تعود أن يؤثر الحلف فيه لإدراكه أن الكلام المستحق للاهتمام هو الذي يبدأ باليمين فإذا ما حلف إنسان على شيء ما لكان

(٨١) انظر سيد قطب التصوير الفني في القرآن ص ١٤٥ وما بعدها ط ٣ دار المعارف بمصر ١٩٧٥ .

(٨٢) آل عمران / ٦٢ .

(٨٣) يوسف / ١١١ .

بذلك دالاً على أهمية الشيء واهتمامه به وقد ورد عن بعض الأعراب أنه لما نزل قوله تعالى (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون)[٨٤] قال : من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين[٨٥] . ويأتي التأثير بالقسم القرآني لأنه يتخير حالات يهتم الناس بها ويبرزها في صورة مثيرة ثم يقسم بها من ذلك قوله تعالى (والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمراً)[٨٦] ومثله قوله تعالى (والعاديات ضبحا فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً)[٨٧] وهكذا يقوم القسم القرآني بدوره في التأثير النفسي بما له من خصائص واشتماله على الطرق المؤثره في النفس الإنسانية .

٥ - المثل في القرآن :

يؤدي المثل دوره التأثيري لما اشتمل عليه من دقة تصويرية وإبراز للمعقول في صورة المحسوس . والمثل القرآني يستمد من عناصر الطبيعة لتظل قريبة من الإنسان أيا كان تعيش معه وتؤثر فيه وحتى يؤدي المثل هذه المهمة يتخذ من الطبيعة ميداناً يقتبس منها صوره فمن نباتها ترى الحبة تنبت سبع سنابل وترى الشجرة الطيبة والخبيثة ، والزرع الذي أخرج شطأه ومن حيواناتها ترى الحمار والكلب ومن حشراتها ترى البعوض والعنكبوت ومن طيورها ترى الهدهد ومن أحجارها ترى الرماد الصلد والجبل . إلخ ذلك لأن القرآن لا يقصد الاهتمام بالممثل به بقدر ما يهتم باقتراب الصورة في نفس الإنسان مع شدة وضوحها وتأثرها[٨٨] والمثل القرآني يكون حقيقة فيطلق على نفس الشيء كقوله تعالى (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم)[٨٩] وقد يأتي على صورة التشبيه كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ

(٨٤) الذاريات / ٢٣ .
(٨٥) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن جـ ٢ ص ١٣٣ .
(٨٦) الذاريات / ١ - ٤ .
(٨٧) العاديات / ١ - ٣ .
(٨٨) انظر - د / أحمد غلوش : الدعوة الإسلامية ص ٣٧٤ ط دار الكتاب المصري - اللبناني ١٩٧٨م .
(٨٩) محمد / ٣ .

ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ الآية[٩٠]

وضرب الأمثال يستفاد منه التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)[٩١] وهكذا يقوم المثل بالتأثير النفسي والتمسك بالقيم الرفيعة على قدر الطاقة البشرية فيستنزل المعاني الصعبة ويجعلها في متناول العقل الإنساني في بيان معجز وترتيب دقيق .

٦ - التاريخ الإنساني :

وهو سجل أحداث الأمم والمستودع الذي تؤخذ منه العبر والدروس بالنظر في أحداث الماضي وكيف تعمل سنن الله في المجتمعات وفق ضوابط ثابتة لا تحابي أمة ولا تجامل شعباً والتاريخ البشري حافل بألوان مختلفة من الصراع على مستوى الأفراد والجماعات وقد أوجد الله الصراع في حياة البشر وجعله سنة من سننه التي تجري بها الحياة البشرية لغاية معينة وقد لفت القرآن الأنظار إلى كثير من أخبار الأمم الماضية ليحقق من وراء ذلك ذكرى وعظة وعبرة فدعا بالتوجيه إلى السير والنظر كما في قوله تعالى (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)[٩٢] وبالسير والنظر تحدث العظة والعبرة بما كان من عاقبة المكذبين المشركين مما ينعكس على النفس بالتأثير والانقياد لأوامر الله والعمل بمنهجه وهذا هو المقصود الأسمي من السير في الأرض والنظر في مواطن الأمم تصديقاً لقوله تعالى (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)[٩٣] وفي تاريخ الأنبياء في القرآن سجل حافل لكل من يريد أن يستقيم على الحق لما فيه من تربية النفوس وعلاج الإنسانية .

٧ - الأحداث الهامة :

لقد استعان القرآن بالأحداث الهامة التي كانت تمر بالمسلمين لتعليمهم بعض العبر المفيدة لهم في حياتهم والمثيرة لوجدانهم حتى يكون هذا الحدث درساً

(٩٠) الجمعة / ٥ .
(٩١) العنكبوت / ٤٣ .
(٩٢) آل عمران / ١٣٧ .
(٩٣) الأعراف / ١٧٦ .

عملياً تزكوا به نفوسهم ومن أمثلة ذلك ما حدث في غزوة حنين حينما أعجب المسلمون بكثرتهم فأخبرهم ربهم أن الكثرة لا تؤدي بالضرورة إلى النصر وإنما ينصر الله من يشاء من عباده المؤمنين حتى ولو كانوا قلة[٩٤] قال تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ . إلخ الآيتين[٩٥] .

٨ - القـــدوة :

إن القدوة الحسنة من أهم الأسس في التأثير النفسي وهذا ما فعله الرسول ﷺ حين طبق القرآن تطبيقاً عملياً في حياته الشخصية وفي علاقته مع الناس وقد توعد الله من لم يطابق عمله قوله فقال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ [٩٦] كما ذم القرآن بني إسرائيل لمخالفة فعلهم لقولهم قال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٩٧] والدعاة إلى الحق هم الذين يجمعون إلى علمهم العمل بما يدعون إليه فيتأثر الناس بسلوكهم وثبات أخلاقهم والرسول ﷺ أعظم قدوة للبشرية كان مربيا وهادياً للنفوس بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بقوله قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٩٨] والاقتداء بالرسول ﷺ باق إلى يوم القيامة فهو للعالمين كلهم في جميع الأزمان والأماكن آية باقية وستظل سيرته تهز أوتار النفوس وتأخذ

(٩٤) انظر محمد شديد منهج القرآن في التربية ص ٢٧٧ مؤسسة الرسالة بيرون ١٩٧٩م .
(٩٥) التوبة / ٢٥ ، ٢٦ .
(٩٦) الصف / ٢ ، ٣ .
(٩٧) البقرة / ٤٤ .
(٩٨) الأحزاب / ٢١ .

بمجامع القلوب وهذه هي بعض الوسائل التي بها . يؤدي القرآن مهمته في توجيه النفس إلى الخير .

التأثير بالقرآن باق ومستمر

مازال تأثير القرآن باق يعمل عمله في النفوس لأن معجزته باقية ولفظه لم يتغير ومازال منذ نزل محفوظاً في السطور والصدور . ولهذا نرى أن من يسمع القرآن الآن يدرك تلك المعاني التي كان يسمعها ويدركها السابقون يقول (كوزان دي بيرسوفال) في سحر القرآن وتأثيره : (وليست حال محمد ﷺ في انفعالاته وتأثراته بحالة ذي جنة ، بل كانت مثل التي قال نبي بني إسرائيل في وصفها (لقد شعرت بأن قلبي انكسر بين أضلعي وارتعشت مني العظام فصرت كالنشوان لما قام بي من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة)[٩٩] . ولنستمع إلى رأي ك ك نريج أستاذ الأدب العربي بجامعة كمبردج في كتابه القيم (كيف تعرفت على القرآن) عن سحر القرآن في النفوس فيقول : (لدى تصفحي السريع للقرآن الكريم أدركت أنني أمام مضمار جديد في الأسلوب والجرس والهيمنة . . . إلخ فأصبحت أتلو القرآن فأجد في كل مرة نكهة خاصة لا يمكن إلا أن تكون سماوية ثم تساءل هل كل من يقرأ هذا السفر الجليل يشعر بمثل ما أشعر به أم ماذا ؟ وتوجه بسؤاله إلى عشرات من المستشرقين المنصفين في أروبا وأمريكا فكان الجواب كالآتي : نحس ونشعر بشيء غريب غير عادي وغير مادي ننجذب إليه بطريقة لاشعورية جذباً قوياً وفي النهاية يقول كل الذين أعرفهم في أوربا وأمريكا اعترفوا بشعورهم وإحساسهم الأغرب نحو القرآن ولاسيما عندما يعطى القرآن كل ذرة من كيانه فإذ ذاك يرى الإنسان العجب العجاب . ثم يقول لا أشك لحظة في إلاهية القرآن وهيمنته وإعجازه وسيطرته على الألباب[١٠٠] . هذا رجل أحس بما أحس به غيره من روعة القرآن وجمال نظمه وسحر لفظه فما بال من فهم

---

(٩٩) د / عبد الحليم محمود : أوربا والإسلام ص ٤٣ .

(١٠٠) انظر : د / توفيق الواعي : الحضارة الإسلامية ص ٦٥٢ ، ٦٥٣ نقلاً عن ك ك نريج (كيف تفهمت القرآن) ص ٦٢٥ .

(١٠١) الجن / ١ - ٢ .

المعنى وخالط الأحكام واتصل بالأنوار وانسجم مع الوحي وأوّب مع الترتيل ، إن القرآن مازال هو القرآن الذي سمعته الجن : (فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً . يهدي إلى الرشد فآمنا به)[١٠١] .

ويقول الأستاذ محمد حنيف الباحث بالموسوعة الفقهية بالكويت : إنه ذهب إلى لندن لإلقاء محاضرة في مسجد بها فوضع المكلفون بتنظيمها شريطاً من القرآن في مكبر الصوت لجمع الناس وما أن قرىء القرآن وسمعه الناس حتى توافد على المسجد جمع غفير جلسوا يستمعون القرآن كأن على رؤسهم الطير ولكن بمجرد أن أغلق مكبر الصوت استعداداً لبدء المحاضرة أخذ الناس ينصرفون فعجبت من ذلك وبعد الفراغ سألت إمام المسجد عن هذه الظاهرة فقال : ما نكاد نفتح مكبر الصوت في أي وقت على القرآن الكريم حتى يتوافد الناس على المسجد ويجلسون خاشعين رغم أنهم لا يفقهون القرآن . ولكنه يأخذهم بسحره وروعة لفظه وموسقاه ، فإذا انتهت التلاوة قاموا كما جاءوا . فهذه هي روعة الكتاب العزيز وقدسية الآيات التي تنفذ إلى الأعماق وإن كان اللسان غير اللسان ولكن الخالق هو المتكلم والآيات آياته والخلق عباده والكون ملكه واللغات تدبيره وأمره[١٠٢] وصدق الله حيث يقول (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين)[١٠٣] وما يحدث اليوم حدث مثله بالأمس فقد روى أن نصرانياً مر بقاريء فوقف يبكي فقيل له مم بكيت قال للشجاعة والنظم ، وحكى عن بعضهم أنه كان إذا أخذ المصحف بيده يغشى عليه من هيبته[١٠٤] وروى عن أبي عبيدة أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ (فاصدع بما تؤمر . . إلخ)[١٠٥] فسجد وقال سجدت لفصاحته ، وسمع آخر رجلاً من المسلمين يقرأ (فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً)[١٠٦] فقال أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام ، وحكى الأصمعي أنه سمع جارية تتكلم بعبارة فصيحة

---

(١٠٢) انظر : الحضارة الإسلامية ص ٦٥٤ مرجع سابق .
(١٠٣) الروم / ٢٢ .
(١٠٤) معترك الأقران : جـ ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .
(١٠٥) الحجر / ٩٤ .
(١٠٦) يوسف / ٨٠ .

وإشارة بليغة وهي خماسية أو سداسية ، وتقول أستغفر الله من ذنوبي كلها فقال لها مم تستغفرين ولم يجر عليك قلم ؟ فقالت :

استغفر الله لذنبي كله قتلت إنساناً بغير حله

مثل غزال ناعم في دله وانتصف الليل ولم أصله

فقال لها قاتلك الله ما أفصحك فقالت أو بعد هذا فصاحة بعد قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾. إلخ الآية)[١٠٧] فجمع في آية واحدة وبين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين[١٠٨] . والمتتبع للحركة العلمية في العصر الحاضر يجد أنها قد استفادت من هذا الأثر النفسي للقرآن استفادة لاحد لها في علاج هؤلاء المرهفي الحس الذين يتأثرون بجمال الكلمة وعذوبتها وسحر مضمونها . لذلك بدأت تظهر حديثاً اتجاهات بين بعض علماء النفس تنادي بأهمية التربية الدينية في متابعة الأمراض النفسية وعلاجها ونرى أن في الإيمان بالله والاتصال بالقرآن قوة خارقة تمد الإنسان المتدين بطاقة روحية تعينه على تحمل مشاق الحياة وتجنبه القلق الذي يتعرض له كثير من الناس . فالإيمان النابع من الاتصال بكلام الله ووحيه له تأثير عظيم في نفس الإنسان يزيد من ثقته بنفسه وقدرته على الصبر وتحمل المشاق .

الصحة النفسية في رحاب الايمان :

إن الإنسان المعاصر في أمس الحاجة إلى يقين ديني يعيد إليه سعادته المفقودة وأمنه المسلوب وحياته الضائعة . ومادام القرآن الكريم يمنحنا هذا القدر الكبير من هذه الحقائق التي أخذت تنكشف قرناً بعد قرن فلماذا لا نتحرك على ضوء هذه المعادلة لإنقاذ الإنسان المعاصر من ورطته بفقدان اليقين ، والعلم الحديث لم يعد يرفض الحقيقة الدينية أو يشكك فيها كما هو الحال في العصور الماضية

---

(١٠٧) القصص / ٧ .

(١٠٨) القاضي عياض : الشفا : ص ١٢٧ وما بعدها ، إظهار الحق ص ٣٦٩ مرجع سابق .

ولكنه يعود اليوم ليتعانق مع الدين ويتوظف لديه[١٠٩] .

وهذه الضرورة إلى الدين والاتصال الروحي بالله وإتباع منهجه الذي ذكره في كتابه تلبع من احتياج الإنسان إلى ركن شديد يأوي إليه وإلى سند متين يعتمد عليه إذا ألمت به الشدائد وحلت بساحته الكوارث هنا تأتي العقيدة الدينية فتمنحه القوة عند الضف والصبر في البأساء والضراء وحين البأس قال تعالى : (قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين)[١١٠] .

وقال أيضاً : (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ)[١١١] .

إن الاعتقاد في الله والاتصال بكتابه يهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية فتشع في كيانه البهجة وينظر إلى الحياة بمنظر مشرق ويهون عليه ما يكابد في حياته الفانية ويجد من الاطمئنان والسكينة مالا يغني عنه علم ولامال ولا ولد ولا جاه قال تعالى : (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[١١٢] أما الذي يعيش في دنياه بغير عقيدة دينية ولا يؤمن بإله يرجع إليه في أموره كلها فإنه يعيش مضطرب النفس متحير الفكر ممزق الكيان ولهذا نرى الذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرضون أكثر من غيرهم للقلق النفسي والتوتر العصبي والاضطراب الذهني وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة فإما انتحروا انتحاراً سريعاً وإما عاشوا مرضى النفوس أمواتاً كالأحياء ولقد اعترف الملحدون أنفسهم بأثر الإيمان في الأزمات كما أثبت الاستقراء والمشاهدة إن أشد الناس جزعاً وأسرعهم انهياراً أمام شدائد الحياة هم الملحدون وضعاف الإيمان وقد وصف القرآن هذا الصنف من الناس فقال (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور)[١١٣] وقال (وإن مسه الشر فيؤس

(١٠٩) د / عماد الدين خليل : موقف القران من العلم ص ٣١ ط مؤسسة الرسالة .
(١١٠) يونس / ٥٧ .
(١١١) فصلت / ٤٤ .
(١١٢) الرعد / ٢٨ .
(١١٣) هود / ٩ .

قنوط)[١١٤] وقال (وإذا مسه الشر كان يؤسا)[١١٥] ذلك لأنهم لا يؤمنون بقدر فيرضوا به ولا بإله فيطمئنوا إلى حكمته في خلقه ولهذا يكثر الانتحار في البيئات التي ضعف دينها أو فقدته فإن لم يكن الانتحار فهو الألم القاتل والجزع الهالع وهذا ما قرره علماء النفس وأطباء العلاج النفسي في العصر الحديث وهو ما سجله المفكرون والنقاد في العالم كله[١١٦] يقول المؤرخ الفيلسوف آرنولد توينبي : (إن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي تضطره إلى التماس العزاء الديني على موائد لا تملك منه شيئاً)[١١٧] ويقول الدكتور (بريل) : (إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً) ويقول الدكتور كارل يانج في كتابه (الإنسان العصري يبحث عن نفسه) .

إن كل المرضى الذين استشار وني خلال الثلاثين سنة الماضية من كل أنحاء العالم كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم)[١١٨] وقد أدرك أطباء النفس أن الإيمان القوي والاستمساك بالدين كفيلان بقهر القلق والتوتر العصبي وأن يشفيا من هذه الأمراض وقد أفاض الدكتور (هنري لنك) في كتابه (العودة إلى الإيمان) في بيان ذلك والتدليل عليه بما لمسه وجربه من وقائع وفيرة خلال عمله في العلاج النفسي[١١٩] .

ويقول د . (بول أرنست أدولف)[١٢٠] (لقد أيقنت أن العلاج الحقيقي لابد أن يشمل الروح والجسم معاً في وقت واحد وأدركت أن من واجبي أن أطبق معلوماتي الطبية والجراحية إلى جانب إيماني بالله .

ولقد وجدت بعد تدبر عميق أن معلوماتي الطبية وعقيدتي في الله هما الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة وهي الطريقة الوحيدة التي

---

(١١٤) فصلت / ٤٩ .
(١١٥) الإسراء / ٨٣ .
(١١٦) د / يوسف القرضاوي الإيمان والحياة ص ١٦٢ .
(١١٧) ارنولد توينبي مختصر دراسة التاريخ جـ ٣ ص ١٧٩ نقلاً عن الإيمان والحياة .
(١١٨) انظر الإسلام يتحدى ص ٢٨١ مرجع سابق .
(١١٩) انظر الإيمان والحياة ص ٣٠٠ نقلاً عن هنري لنك العودة إلى الإيمان ص ٢٣ - ٢٨ .
(١٢٠) استاذ مساعد التشريح بجامعة سانت جونس وعضو جمعية الجراحين الأمريكيين .

استطعت من خلالها أن أقدم لمرضاي العلاج الكامل الذي يحتاجون إليه)[١٢١] .

وهذا يؤكد مدى حاجة الإنسان إلى الدين والعمل بمهنج الله الذي ذكره في كتابه ليكون دواء لمعالجة أمراضه سواء أكانت نفسية كالهم والقلق والحيرة وغيرها أو كانت جسدية أياً كان نوع المرض وأن التدين وربط القلوب بالخالق والاتصال بكلامه هو الملجأ والملاذ للإنسان في كل الأحوال حتى يعيش مستريح النفس هادىء البال وقد تسلح بأكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس والقنوط .

وتمدنا الدراسات الحديثة بأدلة ثابتة عن نجاح هذا الأثر النفسي النابع من الإيمان بالله والاتصال بكتابه في شفاء النفس من أمراضها وتحقيق الشعور بالأمن والطمأنينة والوقاية من الإحساس بالقلق والصراع النفسي .

يقول د / محمد عثمان نجاتي[١٢٢] : إن العلاج يتدخل عادة بعد حدوث الإصابة بالمرض النفسي أما إذا بث الإيمان بالله في نفس الإنسان منذ صغره فإنه يكسبه مناعة من الإصابة بالأمراض النفسية .

ويرتبط بهذا الإعجاز النفسي ما يتحقق للمؤمن من سكينة النفس وأمنها وطمأنينتها كما ورد في القرآن الكريم[١٢٣] . وبهذا يحق لنا أن نذكر أن القرآن الكريم قد استوعب كل ما يتصل بالإنسان وتكوينه ونظر إلى جوهره الكامن في أعماقه وخاطبه بكل الوسائل النفسية وغيرها ليصل إلى قلبه وعقله وروحه . وبذلك يكون القرآن قد استخدم كل مقومات علم النفس الإنساني منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان قبل أن يتحدد مفهوم هذا العلم بمصطلحاته في العصر الحديث قال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)[١٢٤] .

وكان الهدف الأسمي من ذلك أن يملك هذا القرآن زمام النفس الإنسانية

---

(١٢١) انظر نخبة من العلماء الأمريكيين : الله يتجلى في عصر العلم ص ١٣٨ ، ١٣٩ ترجمة د / الدمرداش عبد المجيد ومراجعة د / الفندي ط ١ مؤسسة الحلبي ١٩٦٨ .

(١٢٢) القرآن وعلم النفس ص ٢٤٢ .

(١٢٣) الأنعام / ١٧ ، الرعد / ٢٨ ، التغابن / ١١ .

(١٢٤) ق / ١٦ .

فإذا تملكها وسيطر عليها بث فيها كل البذور الصالحة التي يقصد إلى غرسها في قرارة هذه النفس ويرد الناس إلى خالقهم . وهذا الرد إلى الخالق هو محور هذا الوجه النفسي للإعجاز وهو محور العقيدة الإسلامية وأكبر دعائم منهجها التربوي . ولذلك كان آية من آيات الإعجاز القرآني .

وهذا الوجه هو معجزة كل زمان ومكان ، معجزة تسع الناس جميعهم عالمهم وجاهلهم عربيهم وغير عربيهم . . . وبعد

فهذا هو الأثر النفسي للقرآن الكريم وهو من وجوه إعجازه التي ذكرتها على سبيل التمثيل لا الحصر حيث لا يمكن الإحاطة بها . وسيظل القرآن معجزة خالدة شامخة ينهل العلماء من فيضه ويكتشفون ما فيه من إعجاز إلى قيام الساعة ، لا تنقضي عجائبه ، ولا تنفد غرائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، تقشعر منه القلوب وتسكن إليه النفوس . ومن يعايشه ويفهمه لابد أن يعلم تمام العلم أنه الدواء للبشرية من عللها ، والشفاء لها من أسقامها ، بأحكامه ومنهجه وآياته وأسراره ، كما أنه لابد وأن يشعر أن دينا لكتابه ودستوره هذه الجاذبية في تعاليمه وآياته وأحكامه لا ينمحى ولا يزول ذلك لأن الحب دليل البقاء ولأن القوة الحقيقية لأي منهج تعتمد على فتح مغاليق النفوس واستقرارها وبعثها وشفائها مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)[١٢٥] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم نتائج البحث

١ - تناول التشريع القرآني جوانب الحياة كلها وتواءم مع الفطرة الإنسانية في شمـول ، وكمال وتوازن وبغير تعارض واضطراب أو تناقض مما أدى إلى اعـتراف المنصفين من رجال القانون حتى من غير المسلمين بعظمة هذه التشريعات وأوصوا بضرورة الاستفادة منها .

٢ - ثبت بالدليل القطعي أنه لا تعارض بين قطعي الدلالة من القرآن وحقائق العلم ، لأن القـرآن كلام الله المسطور والكون صنع الله المنظور وهما لا يتناقضان بل يصدق أحدهما الآخر .

٣ - ومن وجوه الإعجاز القرآني إخباره بالغيوب الماضية والمستقبلة وهذا لا يكون إلا لعالم الغيب والشهادة .

٤ - إن التأثير النفسي بالقرآن يتناول سائر المخلوقات كما أنه لا يقع مستقلاً بذاته عن وجـوه الإعجـاز الأخـرى . لأن الـوجـوه كلها تذوقية تحرك المشاعر والوجدان وتؤثر في الأسماع .

٥ - للقرآن جاذبيته التي تستجيب لها العاطفة النيرة وينشد إليها القلب الصادق ويتذوق حلاوتها الوجدان السليم وهذا ليس في الإنسان وحده بل إن الإنس والجن في هذا سواء .

٦ - يعتبر القرآن ثورة على مفاسد الجاهلية ، وحين دخل العرب في الإسلام غير كل ما كان بأنفسهم من مفاسدها فزكت أخلاقهم وأحدث فيهم أعظم ثورة روحية واجتماعية عرفها التاريخ .

٧ - لا يقف التأثر بالقرآن عند حد الأحياء فقط ولكن يتعدى إلى الجماد لما فيه من روعـة وأثـر مزلـزل لا يثبت له شيء يتلقاه ، وهذا أدعى لأن تتلقاه الأنفس فيبعث فيها التأمل والفكر والخشوع .

٨ - استخدم القرآن الكريم الكثير من الوسائل المتنوعة لتحقيق منهجه في التأثير النفسي مما كان له أعظم الأثر في تربية النفوس وتزكيتها .

٩ - إن التأثر بالقرآن باق ومستمر إلى قيام الساعة لما له من روعة وقدسية تنفذ إلى الأعماق حتى مع غير الناطقين بالعربية وهذا من آيات الله في خلقه .

١٠ - إن الأثر النفسي النابع من الإيمان بالله والثقة به والمتمثل في شفاء النفس من أمراضها وتحقيق الشعور بالأمن والطمأنينة ، والوقاية من الإحساس بالقلق والصراع النفسي قال به القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام قبل أن يقول به علم النفس الحديث . وهذا من دلائل الإعجاز في القرآن الكريم .

أهم مراجع البحث

١ - القرآن الكريم .

٢ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ط دار صادر بيروت سنة ١٩٦٥م .

٣ - ابن حجر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري . ط الحلبي القاهرة سنة ١٩٥٩م .

٤ - ابن سعد : الطبقات الكبرى ط بيروت سنة ١٩٥٨م .

٥ - ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ط أولى الدوحة سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٧م .

٦ - ابن كثير البداية والنهاية في التاريخ ط مطبعة السعادة مصر ١٣٥١هـ .

٧ - ابن كثير تفسير القرآن العظيم : ط أولى الدار المصرية اللبنانية سنة ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

٨ - ابن كثير السيرة النبوية تحقيق مصطفى عبد الواحد دار الرائد العربي بيروت سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٩ - ابن هشام : السيرة النبوية تحقيق مصطفى السقا وآخرين ط الحلبي سنة ١٣٥٥هـ .

١٠ - د / أحمد العمري مفهوم الإعجاز القرآني . طبع ونشر دار المعارف بدون .

١١ - الباقلاني إعجاز القرآن تحقيق أحمد صقر ط ٤ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م .

١٢ - البيهقي : دلائل النبوة نشر دار النصر للطباعة بالمدينة المنورة سنة ١٩٦٩م .

١٣ - د / توفيق الواعي : الحضارة الإسلامية ط ١ نشر دار الوفاء بالمنصورة بمصر سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

١٤ - الخطّابي : بيان إعجاز القرآن . ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ط

دار المعارف بمصر .
١٥ - رحمت الله الهندي : إظهار الحق : تحقيق أحمد السقا ط دار التراث العربي بمصر ١٩٧٨م .
١٦ - الرازي : مختار الصحاح . ط عيسى الحلبي بمصر بدون .
١٧ - الرافعي : إعجاز القرآن دار الكتاب العربي : بيروت سنة ١٣٤٦هـ .
١٨ - الزركشي : البرهان في علوم القرآن . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ١ الحلبي ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م .
١٩ - السيوطي : الاتقان في علوم القرآن . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم نشر دار التراث بالقاهرة .
٢٠ - السيوطي : معترك الاقران في إعجاز القرآن . ت على البجاوي طبع ونشر دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٦٩م .
٢١ - سيد قطب : في ظلال القرآن . ط دار إحياء التراث العربي . بيروت ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .
٢٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ط دار المعارف بمصر ١٩٦٠م .
٢٣ - د / عبد الحليم محمود : أوربا والإسلام منشورات المكتبة العصرية بيروت ١٩٤٨م .
٢٤ - د / عماد الدين خليل : موقف القرآن من العلم ط مؤسسة الرسالة بدون .
٢٥ - عبد الوهاب خلاف : أصول الفقه ط ١٠ نشر دار القلم بالكويت ١٩٧٢م .
٢٦ - الغزالي (حجة الإسلام) : الرسالة اللدنية - من العقود واللآلي ط المحمودية التجارية .
٢٧ - القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ط مصر ١٩٤٠م ، ط دار الشعب .
٢٨ - محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى : القرآن طبع ونشر دار الفكر العربي ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

٢٩ - محمد رشيد رضا : الوحى المحمدي ط ٥ دار المنار ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .
٣٠ - محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ط ٤ دار القلم بالكويت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
٣١ - محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن . الكتاب الثاني نشر مكتبة التراث الإسلامي بدون .
٣٢ - د / محمد عثمان نجاتي : القرآن وعلم النفس دار الشروق بيروت ١٩٨٥م .
٣٣ - وحيد الدين خان الإسلام يتحدى ت عبد الصبور شاهين ط دار البحوث العلمية ١٩٧٣م .
٣٤ - د / يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ط ٧ نشر مكتبة وهبة ١٩٨٠م .